

البياب والتاسع
في
الخروج عنه مقتضى الظاهر

obeikandi.com

ما مضى فى الأبواب السالفة هى الأحوال التى يلاحظ فيها البليغ مقتضى ظاهر الحال ، وقد يعدل عنها لنكتة ، فعلى المخاطب ان يبحث عن سبب العدول مستعينا بالقرائن ويسمى ذلك ﴿ الخروج عن مقتضى الظاهر ﴾ .

وقد سبق ذكر شئ من أحواله نيهناك عليه فى حينه كتنزيل العالم منزلة الجاهل والمعقول منزلة المحسوس ، وقد بقى منه امور اهمها ^(١) تجاهل العارف (مزج الشك باليقين) وهو اخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزداد تأكيدا والداعى اليه .

(١) اما المدح كقول ذى الرمة :

أبا ظبية الوعساء بين جلاجل
وقول ابى هلال العسكرى :

أثغر ما أرى ام أقحوان
وقد ما أرى أم خيرزان
(٢) واما الذم كقول زهير :

وما أدرى وسوف اخال ادرى
اقوم آل حصن ام نساء

(٣) واما التعجب كقوله تعالى ﴿ أفسح هذا ام أنتم لا تبصرون ﴾ .

(٤) واما التوبيخ كقول ليلى بنت طريف الخارجية فى أخيها الوليد :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف ^(٣)

(ب) الالتفات وهو فن من البلاغة ملاكه الذوق السليم والوجدان الصادق ، ويلقب (بشجاعة العربية) لان فيه ورود الموارد الصعبة واقتحام مضايق الأساليب .

وحقيقته التعبير عن معنى بطريق الثلاثة ، التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، وذلك ست صور :

(١) فمن التكلم الى الخطاب نحو : ﴿ مالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾
دون ﴿ ارجع ﴾ .

(١) سماء ابن رثيق فى العمدة التشكيك وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يخفى ما له من حسن الروعة وجمال الموقع .

(٣) الخابور نهر يدهار بكر يصب فى الفرات .

(٢) الوعاء وجلاجل والنقى مواضع .

(٢) ومن التكلم الى الغيبة نحو ﴿ انا اعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ﴾ دون (لنا) .

(٣) ومن الخطاب الى التكلم نحو قول علقمة بن عبدة العجلي :

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب (١)
يكلفنى ليلى وقد شط وأيها وعادات عواد بيننا وخطوب
وكان مقتضى الظاهر يكلفك اى القلب .

(٤) ومن الخطاب الى الغيبة نحو : ﴿ حتى اذا كنتم فى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ دون (بكم) .

(٥) ومن الغيبة الى الخطاب نحو : ﴿ والله الذى ارسل الرياح فتشير سحابا فَسُقْنَاهُ ﴾ دون (فساقه) .

(٦) ومن الغيبة الى الخطاب نحو : ﴿ مالك يوم الدين اياك نعبد ﴾ دون ﴿ اياه ﴾ .

ووجه حسنه ما ذكره الزمخشري وهو ان الكلام اذا نقل من اسلوب الى اسلوب كان ذلك احسن بطرية وتجديدا لنشاط السامع وأكثر ايقاعا للاصغاء اليه من اجرائه على اسلوب واحد ، ومن ثم قيل لكل جديد لذة - وقد تختص مواجهة باللطائف كما فى سورة الفاتحة فان العبد اذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : الحمد لله الدال على اختصاصه بالحمد وانه حقيق به وجد من نفسه محركا للاقبال عليه ، فاذا انتقل الى قوله رب العالمين الدال على انه مالك للعالمين لا يخرج منهم شئ عن ملكوته قوى ذلك المحرك ، وهكذا كلما جرى عليه صفة من تلك الصفات العظام قوى ذلك المحرك الى ان يؤول الامر الى خاتمتها المفيدة انه مالك الامر كله فى يوم الجزاء - حينئذ يجد من نفسه اقبالا عليه وتخصيصا له بالخطاب لغاية الخضوع والاستعانة به فى المهمات .

(ج) الاسلوب الحكيم وسماه الامام عبد القاهر المغالطة ، وهو نوعان :

(١) طحا ذهب ويعيد تصغر بعد وحن قرب والولى القرب وفاعل يكلف القلب اى يطالبنى القلب بوصل ليلى .

(١) تلقى المخاطب^(١) بغير ما يترتب بحمله كلامه على غير ما يريد نبيها على انه الاولى بالقصد كقول ابن حجّاج البغدادي :

قلت ثقلت اذ أتيت مـراراً قال ثقلت كاهلي بالايادي
قلت طولت قال لا بل تطولت وأبرمت قال حـبيل ودادي

فلفظ ثقلت وقع في كلام المتكلم بمعنى حملتك الموننا فحمله المخاطب على تثقيب عاتقة بالمن والايادي .

(٢) تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على انه الأهم كقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللّٰهِ الدِّينُ وَالْآقْرِبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فقد سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصاف تنبيها على ان المهم هو السؤال عنها لأن النفقة لا يعتد بها إلا ان تقع موقعها .

(د) الاضمار في مقام الأظهار وذلك في في موضعين :

(١) باب ضمير الشأن والقصة ، ويكون مرفوعا نحو . هي الدولة استعدت ، وهو الحق حصحص ، ومنصوبا نحو : ﴿فإنها لا تعمى الابصار﴾ وسر هذا الأسلوب المبالغة وتعظيم تلك القصة وتفخيمها ، من قبل أن الشيء اذا كان مبهما كانت النفوس متشوقة الى فهمه متطلعة الى علمه ، فاذا وضح وفسر حل محلا رفيع القدر لديهما ومن ثمة لا يكون الا في المواضع التي يقصد فيها التهويل .

(٢) باب نعم وبئس نحو : نعم رجلا محمد ، وبئس غلاما سعيد ، وانتصاب ما بعدهما من النكرات يجيء على جهة التفسير ، والداعى اليه المبالغة في المدح او الذم من حيث انه عند الابهام يكون للأفئدة تطلع الى ايضاح المبهم وشغف الى بيانه .

(هـ) الاظهار في مقام الاضمار فان كان المظهر اسم اشارة كان .

(١) التلقى المواجهة والمخاطب بفتح الطاء اى تلقى المتكلم بالكلام الثانى المخاطب به وهو المتكلم بالكلام الاول .

(١) اما لكمال العناية به لأجل اختصاصه بحكم غريب كقول ابن الراوندى (١)
 كم عاقل اعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
 هذا الذى ترك الاوهام حائرةً وصير العالم التحرير زنديقا (٢)
 فاتى باسم الإشارة لأجل الحكم البديع الذى اختص به المشار إليه وهو تركه الأوهام
 حائرة وتصبيره لعالم التحرير زنديقا .
 (٢) وأما التهكم بالسامع كما اذا كان فاقد البصر فتقول له هذا الهلال بين
 السحاب .

(٣) واما لاظهار بلاغته كأن غير المحسوس عنده محسوس نحو :
 أولئك آبائى فجئنى بمثلهم .

(٤) وأما لكمال فطانته حتى كأن غير المحسوس عنده محسوس نحو :

تعاللت كي أشجى وما بك علة تريدن قتلى قد ظفرت بذلك (٣)
 أى بقتلى وكان من حقه ان يقول به لكنه ادعى ان قتله قد ظهر ظهور المحسوس
 وان كان المظهر غير اسم اشارة فأما :

(١) لزيادة تمكينه فى ذهن السامع نحو : ﴿الله الصمد﴾ ونحو : ﴿الحاقة ما
 الحاقة﴾ وقول الحماسى :

شددنا شدة الليث غدا والليث غضبان

(٢) واما للاستعطاف والخضوع الموجبين للشفقة كقوله :

الهى عبدك العاصى أتاكا مقسراً بالذنوب وقد دعاكا

(٣) واما لأدخال الروعة والمهابة فى نفس السامع نحو : ﴿فاذا عزمتم فتوكل
 على الله﴾ لاندراج كل كمال تحت لفظ الجلالة فأجدر به ان يكون موضع
 التكلان .

(١) هو أحمد بن يحيى الراوندى المتوفى ٢٩١ هـ أنهم بالزندقة ونسب اليه أنه عارض القرآن واتى بما تضحك منه التكللى .
 (٢) اعيت أعجزت ، ومذاهبه أى وسائل معيشته والمراد بالأوهام العقول مجازاً مرسلًا والتحرير العالم الثابت والزنديق من
 يبطن الكفر ويظهر الإسلام واسم الإشارة يعود الى الحكم السابق وهو حرمان العاقل ورزق الجاهل .
 (٣) تعاللت ادعيت العلة اشجى احزن .

(٤) وأما تشبيكم والتعجب نحو ﴿ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا﴾ .
ثم قال بعد ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ فالغرض شد التكبير عليهم
والتعريض بأنهم حقا أهل التمرد والعناد .

(و) التعبير عن الاستقبال بلفظ الماضى للدلالة على تحقق وقوعه نحو ﴿ونادى
اصحاب النار﴾ ، فقد جعل المتوقع الذى لا بد من وقوعه بمنزلة الواقع ، ومثله التعبير
عنه باسم الفاعل نحو . ﴿وان الدين﴾^(١) لواقع ﴿بدل يقع ، او باسم المفعول نحو
﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ بدل يجمع .

(ز) القلب وهو جعل جزء من اجزاء الكلام مكان الآخر والآخر مكانه عنى
وجه^(٢) يثبت حكم كل منهما للآخر ، وهو قسمان .

(١) ما يكون موجبة تصحيح حكم لفظى فقط والمعنى صحيح بدون كقول
القطامى :

قفى قبل التفريق يا ضباعا ولا يك موقفك منك الوداعا^(٣)
لما نكر موقفا وهو فى وضع المبتدأ وعرف الوداع وهو فى موضع خبر جعل من باب
القلب .

(٢) ما يكون موجبه تصحيح المعنى كقولهم عرضت الناقة على الحوض ،
وادخلت القلنسوة فى الرأس ، مكان عرضت الحوض على الناقة وادخلت الرأس فى
القلنسوة اذ الأصل ان يجاء بالمعروض الى المعروض اليه وان ينقل المظروف الى الطرف
لا العكس كما هنا .

والصحيح جوازه اذا اشتمل على مغزى شريف ومعنى حسن كقول رؤبة :

ومهمة مغيرة ارجاؤه كأن لون ارضه سماؤه^(٤)

يريد كأن لون سمائه لغيرتها لون ارضه . فعكس التشبيه لقصد المبالغة ، ونحنوه

(١) أى الجزء حاصل فوقه الجزء استقبالى .

(٢) فان لم يثبت ذلك الحكم نحو فى الدار على ، وكلم محمدا على فان كلا منهما وان جعل فى مكان الاخر باق على
حكمه . لا يسمى ذلك قلبا .

(٣) قفى يا ضباعا ساعة حتى اودعك قبل التفريق فلا جعل الله لنا موقف الوداع موقفا .

(٤) المهمة المفازة والمغيرة المرءة بالغيار والارجاء النواحي .

قول بنى تمام يصف لم الممدوح :

لعاب الافاعي القاتلات لعابه وارى الجنى اشثارته ايد عواسل (١)

وان لم يشتمل على اعتبار لطيف رد كقول عروة بن الورد :

(فديت بنفسه نفسى ومالى) .

(ح) التغلب وهو اعطاء احد المصطحبين او المتشاكلين حكم الاخر ، وهو باب ذو

شعب كثيرة ، فمن ذلك :

(١) تغليب المذكر على المؤنث نحو ﴿ وكانت من القانتين ﴾ ادرجت مريم فى

القانتين من الرجال تغليبا لهم على القانتات وقد جروا على خلاف الغالب فى الفاظ

معدودات فغلبوا المؤنث على المذكر .

(٢) تغليب الملائكة على القليل نحو : فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا

ابليس ، غلب الملائكة على ابليس وهو ليس منهم وسمى الجميع ملائكة .

(٣) تغليب المعنى على اللفظ نحو : بل انتم قوم تجهلون ، بدل يجهلون الذى

ضميره للقوم ولفظه غائب مراعاة للخطاب بانتم .

(٤) تغليب المخاطب على الغائب نحو أنت وعلى صنعتما كذا .

(٥) تغليب احد المتناسين على الاخر كالأبوين والقمرين للاب والام والشمس

والقمر ، وعليه قول المتنبي :

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معا

(٦) تغليب العقلاء على غيرهم نحو : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(ط) يوضع الخبر موضع الانشاء لأغراض منها :

(١) التفاؤل فى الجمل الدعائية نحو وفقك الله الى ما فيه الخير ، وقول النابغة .

اتانى ﴿ ابيت اللعن ﴾ انك لمتنى وتلك التى اهتم منها وانصب (٢)

(٢) التباعد عن صيغة الامر تأدبا واحتراما للسامع كما تقول لعظيم (ينظر مولاى

فى شائى ويقضى طلبتى) مكان انظر واقض .

(١) الأرى العسل واشثارته جنته والعواسل جمع عاسلة وهى جانية العسل .

(٢) ابيت اللعن اى ابيت ان تفعل شيئا تلعن به وكانت هذه تحية الملوك واهتم اصير لاجلها ذاهم والنصب التعب .

(٣) التنبيه على تسير المطلوب وسهولته لوفرة الاسباب واستكمال العدة كما يقول القائل حاثا جنده : ﴿ تفتكون بالاعداء وتنزلونهم من حصونهم وتذيقونهم الردى ﴾ مكان افتكوا وأنزلوهم وأذيقوهم .

(٤) اظهار الرغبة فى حصول المطلوب كما تقول فى الكتاب لغائب ﴿ جمع الله الشمل وقرب ايام اللقاء ﴾ .

(٥) التنبيه على سرعة الامتثال ولو ادعاء نحو : ﴿ وإذ اخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ﴾ مكان لا تسفكوا مبالغة فى النهى بادعاء انهم نهوا فامتلوا ثم اخبروا .

(٦) حمل المخاطب على الفعل بالطف اسلوب كقولك لرجل لا تحب ان يكذبك ، تجئ غدا مكان قولك جئ لتجمل على المجئ لانه ان لم يات غدا صرت كاذبا من حيث الظاهر ^(١) لكون كلامك فى صورة الخبر .

(٧) بوضع الانشاء موضع الخبر لاعتبارات منها :

(١) اظهار العناية بالشئ والاهتمام به نحو ﴿ قل امررى بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ لم يقل واقامة وجوهكم اشعارا بالعناية بالصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها فى الدين .

(٢) التباعد عن مساواة اللاحق بالسابق نحو ﴿ قال انى اشهد الله واشهدوا انى برئ مما تشركون من دونه ﴾ لم يقل واشهدكم تحاشيا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى .

(٣) الرضا بما هو حاصل كانه مطلوب فى قوله عليه السلام ﴿ من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ﴾ مكان يتبوأ .

(ك) الانتقال من الماضى الى المضارع او بالعكس .

(١) فالاول نحو ﴿ والله الذى ارسل الرياح فتشير سحابا فسقناه الى بلد ميت ﴾ جاء تشير بدل اثار لتستحضر تلك الصورة الماضية حتى كان الانسان يشاهد اثاره الريح للسحاب فيستدل من ذلك على عجب قدرته وباهر حكمته .

(١) أما فى الحقيقة فلا كذب لانه كلام فى معنى الانشاء .

(٢) والثانى كقونه تعالى : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففرع من فى السموات ومن فى الارض ﴾ عطف ففرع على ينفخ تأكيداً للثبوت ومبالغته فى الحصول ودلالة على ان ذلك كائن لا محالة .

تدريب اول

بين السرفى خروج التراكيب الآتية عن مقتضى الظاهر :

- (١) كل خليل كنت خالته (لاترك الله له واضحة^(١))
- كلهم اروغ من ثعلب (ما اشبه الليلة بالبارحة^(٢))
- (٢) (ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا^(٣) من رحمة الله) .
- (٣) (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود) .
- (٤) اذكر حاجتى ام قد كفانى حياؤك ان شيمتك الحياء
- كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
- (٥) المع برق سرى ام ضوء مصباح ام ابتسامتها بالمنظر الضاحى^(٤))
- (٦) وقالوا قد صفت منا قلوب نعم صدقوا ولكن عن ودادى
- (٧) يقول العبد للمولى اذا حول وجهه عنه ، ينظر مولاى الى هنيهة .
- (٨) يكون مزاجها غسل وماء .

الاجابة

- (١) وضع الخبر موضع الانشاء للدعاء عليه فى قوله لا ترك الله له واضحة .
- (٢) فيه التفات بالانتقال من الخطاب الى الغيبة فى رحمة الله .
- (٣) فيه التفات بالانتقال من الخطاب الى التكلم .

(١) الخليل الصديق والواضحة الاسنان تبدو عند الضحك .

(٢) مثل يضرب لتشابه الامور .

(٣) القنوط اليأس .

(٤) الضاحى البارز .

- (٤) فيه التفات من الخطاب الى الغيبة .
 (٥) فيه تجاهل العارف .
 (٦) فيه الاسلوب الحكيم فقد حمل صفاء القلوب على خلوها من الود .
 (٧) وضع الخبر موضع الانشاء تادبا فى قوله ينظر بدل انظر .
 (٨) فيه قلب والاصل يكون مزاجها عسلا وماء .

تقريـن

- (١) تطاول ليلك بالآمد ونام الخلى ولم ترقـد (١)
 وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمـد
 وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود
- (٢) ولو أنهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول .
 (٣) يستلونك عن الأهله قل هى مواقيت للناس والحج .
 (٤) ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا .
 (٥) فلما ان جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السباعا (٢)
 (٦) وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا نباتا .
 (٧) ثم دنا فتدلى :
 (٨) بكرا صاحبى قبل الهجير ان ذاك النجاح فى التسكير

(١) قاله امرؤ القيس والآمد موضع والعائر مريض العين .

(٢) الفدن القصر والسباع الطين المخلوط بالتبن وجواب لما فى البيت بعده .